بيـــير فيلليه

في اليوم الرابع والعشرين من شهر اكتوبر الماضي كان قطار من القطر آتيا الى باريس من مدينة «كان» فانحرف عن طريقه وسقطت القاطرة ومعها عربات اربع في هوة عميقة، وكثر الجرحى والقتلى، وكان بين الذين حملتهم عربات الاسعاف الى مستشفى قريب فات فيه آخر النهار عالم أديب من علماء الفرنسيين وأدبائهم هو الاستاذ بيير فيلليه. ولم تكد الصحف تذيع نعيه حتى وقع من قلوب الادباء المثقفين الفرنسيين موقعا أليما.

وقد طلبت مجلة العالمين الى الاستاذ جوزيف بدييه مدير الكوليج دي فرانس واستاذ الفقيد ان ينعاه في كلمات قصيرة الى قرائها في العالمين فقبل رغم ما بقلبه من الحزن. وكتب صفحات مؤثرة نترجمها فيما يلي:

كان بيير فيلليه صاحب الآثار الادبية القيمة ضريراً كما يعلم كثير من الناس. اصابته هذه الآفة بعد مولده بقليل، ولكنه لم يرض قط ان يشير في اثر من آثاره التاريخية الى هذه الآفة، وكان يكره ان يشير اليها في مقدمة من مقدماته على انها تعلة من التعلات او معذرة من المعاذير. وكان يصدر في ذلك عن رأي له فضله في كتابه «عالم المكفوفين». كان يرى في هذا الكتاب عزاء لامثاله انهم ليسوا بحال من الاحوال مغلقين كما يقول الناس، وان ليس هناك ميدان من ميادين العمل الاجتماعي او العقلي يؤخذ عليهم ويغلق من دونهم. وان آفتهم يمكن ان تضايقهم ولكنها لا تستطيع ان تعجزهم عن العمل والانتاج، لا يحتاجون في ذلك الا الى أن تكون قلوبهم قوية صلبة. وان أشد آلامهم، اوقل ألمهم الوحيد، لأنهم لا يرون، انما يأتيهم من هذا الاشفاق الظالم الذي يختصهم به المبصرون. وقد اراد دائما ان يعامل في مهنته التي كان يحترفها كغيره من الاساتذة، وفي كتبه التي كان يمليها كغيره من المؤلفين كما يعامل غيره من الناس، فينقد ويحكم على آثاره في غير رعاية ما بأنه ضرير.

أيجب علي الآن أن أطيع أمره وأحترم كبرياءه هذه؟ لا. فان الموت قد ألغى هذا الامر. وإذا كان من الحق ان آفته هذه هي التي بعثت في نفسه أقوى الفضائل وأحقها أن تكون قدوة ومثلا، فاني أستطيع أن أقول ان هذه الآفة نفسها هي التي منحت حياته وآثاره نصيبها الموفور من الجمال، وكل من قرأ هذه الكلمات سيشعر بأني لاأقول هذا إشفاقا وعطفا، بل حنانا وإكبارا

ولأجل أن أجد في نفسي أصول هذا الحنان والاكبار يجب أن أرجع بالذاكرة الى عهد بعيد. دخل بيير فيلليه مدرسة المعلمين العليا في سنة ١٩٠٠، وكنت حينئذ معلما فيها. كان قبل ذلك تلميذا ينشأ في معهد العميان الأهلي، ثم اختلف الى غير مدرسة من المدارس الثانوية في باريس. ثم اقتحم المسابقة لدخول مدرستنا على نفس القواعد والشروط، وفي نفس المواد التي يستبق فيها غيره من المبصرين، لا يميزه منهم الا أنه كان يستعين بغلام أقل منه ثقافة وعلما، فكان هذا الغلام يبحث له في المعاجم، ويكتب ما يملي عليه. فنجح نجاحا حسناً. ونستطيع أن نتصور ما أدركنا نحن الاساتذة من القلق، وما أدرك رئيسنا الطيب القلب جورج بيرو. كنا نتساءل ماذا نصنع بهذا الغلام الحدث الذي كان يحسن فنون البيان في اكبر الظن، ولكنه كان ضئيلا نحيلا ضريرا. الى أي نحو من أنحاء العلم نوجهه؟ والى أي غاية نسيره؟ ولاسيما وقد كان يقول إنه لايحب الا التاريخ وتاريخ الآداب خاصة، ولكن كيف كان يعرف هذا النوع من العلم؟ كنا ننظر الى كتبه المكتوبة بالخط البارز والتي اصطحبها حين اقبل الينا، فكنا لانجد الا ديوان فرجيل وبعض الآثار الفرنسية الكلاسيكية، وبعض كتب النحو، ومع ان هذه الكتب كانت تزحم غرفته فانها لم تكن في حقيقة الأمر الا شيئا يسيرا جدا مما يستعين به التلاميذ. ماذا كان يتصور من أمور البحث التاريخي ومصاعبه؟ الم يكن حقا علينا أن نوجهه الى نحو من انحاء هذا البحث العقلي الذي يمكن ان يعتمد فيه الباحث على تفكيره الخاص، فان صاحب مابعد الطبيعة أو الاخلاق أو المنطق أو فقه اللغة، يستطيع الى حد ما أن يعتمد على نفسه. فكان علينا اذن أن نبين له الى أي حد يعرض نفسه لخيبة الأمل إن مضى في طلب التاريخ، وأن نمحو هذه الآمال التي كان يعلل نفسه بها. ولكني رأيت الحاحه وحزنه، فاعتزمت سراً أن أخضعه لامتحان لا يعلم به أحد.

فكلفته أن يهيء بحثا عن أسطورة من أساطير لافونتين، وهي أسطورة الطحان وابنه والحمار، ليلقيه في محاضرة قريبة. فقبل محزونا لأني كنت قد كلفت رفاقه بابحاث اخرى أوسع من بحثه وأعظم خطراً، وكان يحس اني كنت أريد أن أحصره دائما في التمرينات المدرسية التي كان قد شبع منها حتى أدركته التخمة قبل ان يدخل مدرسة المعلمين، ولم يكن يطمئن الى هذا الموضوع الا حين انبأته بأن استاذي سجاستون بارني قد خصص

له صفحات عشرا فى نحته المعروف عن القصص الشرقى واثره فى الادب الفرنسى . وكنت اكلفه ان يدرس هذه الاسطورة ، لا فى صورتها بين اساطير لافونتين ، بل فى صورها الكثيرة التى اختلفت عليها . ولم أدله الا على هذا المرجع ثم انتظرت :

وبعد ستة اسابيع او بعد شهرين القى الدرس الذى طلب اليه . فياله من دهش عم رفاقه فى قاعة المحاضرات ! وياله من فرح ملأ قلبى ! فانه لم يكتف كما كان غيره يكتفى بالتفكير فى هذه النصوص الخمسة أو الستة التى رواها جاستون باريس : فقد اهتدى لأدرى من أى طريق الى مجلة «بنى» (الشرق والغرب) حيث كان (جودوك) قد أخذ منذ سنة ١٨٦٠ يسجل مجموعات من الاساطير الشعبية ، وما هى الا ان أراه قد استطاع ان يستكشف نصوصا عشرة أهملها جاستون باريس عمدا أو خطأ . هنالك اعلنت مكيدتى وهى ان اعرض على هذا الطالب الجديد ايسر بحث فى ظاهر الامر ، هذا البحث الممهد المطروق لأتبين من أمره ما أريد ، ولأعلم أيكتفى باعادة ماقرأ ، أم يحاول أن يأتى بشىء جديد ، وبينت لرفاقه مصاعب هذا البحث عن الاساطير . وقد كان الناس كلفين به فى ذلك الوقت ، وبينت لهم ما يحتاج اليه الباحث المجد من الجهد والاستقصاء لاستكشاف الصور المختلفة لهذه الاساطير فى كتب غامضة مهجورة ، ثم أنبأتهم بأن جهدا خصبا منتجا للاستقصاء العلمى قد ظهر فى هذا اليوم .

ومالى أطيل الوقوف عند هذه القصة كأنى أريد أن أتحدث عن نفسى ، ذلك لأبين اولا كيف كانت الحياة قديما فى مدرسة المعلمين : كيف كانت صورة من صور التعاون بين الاصدقاء ، يعطى الاساتذة فيها من انفسهم اكثر ما يستطيعون إعطاءه ، ولكنهم يأخذون من طلابهم مثل مايعطون ، ثم لأبين بيير فيليه كثيرا ما كان يذكرنى بهذه القصة فيما بعد ، فى ذلك اليوم اعلن بعض الطلبة المتقدمين الذين لم يسبقهم كثيرون انه مؤمن بهذا الشاب الضرير واثق بفوزه فى هذا النوع من البحث الذى يميل اليه .

ولكن هذا الشاب — بيير فيليه — وجد فى الوقت نفسه بين اساتذته ورفاقه من اعانه على قطع هذه الطريق . وكان منهم الظريف (بيير موريس ماسون) والجاد (جبريل لير) وكلاهما سقط فى ميدان الشرف اثناء الحرب الكبرى ، ومنهم بول ازار ، وأوجين البرتينى ، وتراشيه ، وموريت ، وبيير كومير ، ولويس ريو ، وألكسندر جوانو ، وأميه برتو ، وجاك شيفاليه . . . وكم أحب أن أسميهم جميعا هؤلاء الاصدقاء الذين كانوا مثله فى سن العشرين ! والذين أعطوه واخذوا منه احسن المثل وأقومها . بهذه التجربة وبتجارب أخرى أمثالها أثبت بيير فيليه أثناء الاعوام الثلاثة التى قضاها فى المدرسة أنه كان قادرا على النهوض باعباء الاستقصاء العلمى وبأثقلها وأشدها تعقيدا .

ومن هنا دهشت البيئات العلمية ، ولم ندهش نحن حين أظهر فى سنة ١٩٠٨ ، بعد أن ظفر بأجازة الآجر يجاسيون — وبعد أن أتم دراسته فى معهد تيير فى ظل اميل بوترو الذى لقيه أحسن لقاء — كتابه الأول الذى عرض فيه مصادر كتاب مونتينى — Essais de Montaigne — وتطور فصوله .

وكان قد فكر فى هذا الكتاب اثناء إقامته فى مدرسة المعلمين ، وشجعه على ذلك الأستاذ جوستاف لنسون ، ولأجل أن يبلغ من هذا البحث مايريد ، بدأ فنسخ كتاب مونتينى بيده خطا بارزا فكانت نسخته تبلغ عشرين مجلداً . ثم وضع حكم مونتينى وتجاربه فى قصاصات من الورق ، وكانت هذه القصاصات التى رتبها على حروف المعجم تملأ صندوقا ضخما لم يفارقه أعواما طوالا . وكذلك تسلح بهذه الادوات وحفظ كتاب مونتينى عن ظهر قلب على اختلاف نسخه ، ثم أخذ يبحث عن مصادره . فمن أراد أن يقدر هذه المحاولة فليلاحظ ما أحاط بها من الظروف . فقد كان يجب أن يقرأ عليه كل المؤلفين الذين نقل عنهم مونتينى ، وكل المؤلفين الذين كان يرجح أن مونتينى قد عرفهم فى التراجم اللاتينية التى كانت معروفة فى وقته ، مثل كستوس أميريكوس ، كزينوفون ؛ ديوجين ، لارس ؛ أفلاطون ، وفى التراجم الفرنسية المعروفة فى ذلك الوقت تيودور الصقلى ، هيرودوت ، اريانوس ، وفى النصوص الأولى من لوكريس الى فاليريوس مكسيموس ، أى كل ما كتبته روما القديمة تقريبا . ثم ما كتبه علماء النهضة من إرسم الى جوست ايس . واذن فقد بذل بيير فيليه جهده هذا فى قراءة ألف من الكتاب ، ويمكن أن نقدر غنيته المادية من هذا الجهد اذا نظرنا فى الجزء الرابع من طبعته لكتاب مونتينى التى ظهرت سنة ١٩٣٠ ورأينا المراجع وقد رتبها على حروف المعجم بثمانية آلاف مرجع تتصل بأربعمائة من المؤلفين كتبوا باليونانية واللاتينية والايطالية والفرنسية .

وبنحو هذه الطريقة وبمعونة طائفة من القراء كانوا يعيرونه أبصارهم اعارة آلية استطاع أن يتتبع تأثر المؤلفين والكتاب بمونتينى ، فاظهر كتاب مونتينى ولوك وروسو ، ثم مونتينى ونيكون ، ثم مونتينى والألاهيين الانجليز . هذه عنوانات لطائفة من أبحاثه ظهرت كتباً أو رسائل . وهذا النحو من اظهار استعارة المؤلفين

(البقيـــة على صفحة ٤٢)